«يا صبر أيوب»

مطلوب من المصريين الذين صبروا لعقود ولم يجدوا غير الوعود أن يواصلوا صبرهم. مفروض على الأكثر معاناة بينهم، وهم أغلبيتهم بأى معيار، أن يستمروا فى صيام لا نهاية له بالمخالفة للأديان كلها والشرائع جميعها إذا أبوا أن يفطروا على «بصلة» الحكومة الجديدة القديمة. فالمطلوب منهم، إذن، أن يكون كل منهم «أيوب» لا يصبر فقط على البلاء، بل يصدق كل رئيس يأتى فيطالبه بأن يتحمل.

ولم يكتف الرئيس محمد مرسى بمناشدة «أهله وأحبابه الكرام» التحلى بالصبر مثلما فعل سابقوه، بل طالبهم أيضاً بالجلد والتحمل فى أول كلمة وجهها بعد ساعات على إعلان تشكيل حكومة هشام قنديل. فكان الصبر والجلد والتحمل كل ما قاله للناس، عقب أدائه صلاة الجمعة الماضية فى مسجد سيدى عبدالرحمن القنائى، مضيفاً إليها تأكيد ضرورة إعطاء الحكومة الجديدة القديمة فرصة، ثم طالب فى كلمة تالية الصابرين أبداً بتقليل استهلاكهم للكهرباء طواعية، إضافة إلى ما هو مفروض عليهم «ترشيده» عنوة.

وهذا هو ما يسمعه المصريون منذ عقود. فكم من فرص أعطوها حتى صاروا مضرب الأمثال فى الصبر إلى أن نفدت قدرتهم على التحمل فخرجوا ثائرين عندما دعاهم أبناء بعضهم إلى الثورة، ونادوهم: «يا أهالينا انضموا لينا».

غير أن ثورة 25 يناير لم تغير شيئاً، ولم تضعهم بعد على بداية الطريق التى يجنون عبرها ثمار صبرهم وجلدهم وتحملهم الفقر والعوز والمرض والاغتراب فى الوطن والهرب منه. فهم يسمعون الخطاب الرسمى نفسه والوعود إياها، ويُطالَبون بصبر لا نهائى يفوق ما تحمله أيوب رغم أنهم ليسوا أنبياء، ودون أى بادرة تشجعهم على ذلك، وتجعلهم يثقون فى أن نهاية هذا الصبر تقترب أو حتى توشك على الاقتراب.

فكان ممكنا أن يصغى المصريون إلى من يطالبهم بمواصلة الصبر، ويتجاوبوا مع هذا المطلب، بل يتحمسوا له، لو أنهم وجدوا حكومة شراكة وطنية حقيقية تتبنى برنامجاً مستمداً من المشتركات بين برامج مرشحى الثورة فى الانتخابات الرئاسية جميعهم، وتضم شخصيات يعرفونها، ويستطيع كل منها أن يسهم فى تنفيذ هذا البرنامج بما لديه من خبرة مهنية فنية وسياسية فى آن معاً، وليست حكومة موظفين تعبر عن «شراكة» بائسة بين الرئيس «الجديد» والحكومة السابقة، التى تعد امتداداً لنظام حسنى مبارك.

وهذا هو مؤدى فلسفة حكومة الشراكة الوطنية، التى لا تقوم على محاصصة سياسية، بل على مشاركة فى وضع برنامج وحمل مسؤولية تنفيذه. فالهدف من مثل هذه الحكومة هو التعاون الذى لا بديل عنه لحمل تركة ثقيلة ينوء بها كاهل أى طرف منفرداً، وتوجيه رسالة واضحة وأمينة إلى شعبنا تفيد بالتفاف القوى الوطنية حول رئيس جديد حقاً بما يعنيه ذلك من بداية تغيير حقيقى يجعل للصبر هذه المرة نهاية معلومة، وتشجع الصابرين الذين لديهم عمل على بذل أقصى جهد، وتفتح أبواب الأمل أمام الباحثين عن العمل.

فلن تخرج مصر من أزمتها العامة الخانقة المرشحة الآن لمزيد من التفاقم إلا عبر بناء ثقة بين شعبها المطلوب من أغلبيته الصبر والتحمل والسلطة التى تتحمل المسؤولية. وليس ممكناً البدء فى بناء ثقة دون شراكة وطنية فى هذه السلطة وشفافية فى علاقتها مع الناس واستقامة فى تعاملها معهم.

فكيف يثق الناس، مثلاً، فى إبقاء 8 من وزراء حكومة الجنزورى التى سبق أن شيطنها من استعانوا بهؤلاء الوزراء فى الحكومة الجديدة، واعتبروها أداة لدى الثورة المضادة، واتهموها بافتعال الأزمات لإفشال مجلس الشعب؟! وكيف يصبح رئيس الحكومة التى كانت «شيطاناً» حتى أسابيع قليلة مضت ضمن الفريق الرئاسى، وهل يمكن الاستخفاف بعقول المصريين إلى هذا الحد ثم مطالبتهم بالاستمرار فى الصبر على ما ابتلاهم حكامهم الظالمون به!!

ومع ذلك، وكى لا يخلو النفق المظلم الذى حُشر المصريون فيه من نقطة ضوء خافتة، نأمل أن يعمل كل من القاضى الجليل أحمد مكى والمناضل الصديق أسامة ياسين والزميل صلاح عبدالمقصود فى وزارات العدل والدولة للشباب والإعلام بعيداً عن الوضع البائس الذى يحيطهم والموظفين الذين يزاملونهم فى الحكومة، من أجل إصلاح ما يمكن إصلاحه فى ثلاثة قطاعات محورية بالنسبة إلى مستقبل مصر. فلا أمل يمكن أن يبقى فى أى بلد دون إقامة عدالة ناجزة غير مسيسة، وإصلاح الإعلام القومى، وتحقيق استقلاله وتأهيل الشباب الهائم على وجهه، حتى يمكن استثمار طاقاته حين يرفع الله عن مصر البلاء ويستعيد شعبها سيادته.